

## مبادئ الديالكتيك المادي

ليون تروتسكي

15 ديسمبر 1939

الديالكتيك ليس خيالا ولا تصوفا، ولكنه علم أشكال تفكيرنا في حدود أبعد لأنه ليس مقتضرا على المشاكل اليومية للحياة ولكنه يحاول الوصول إلى فهم عمليات أكثر بعدها وتعقيدا. الديالكتيك والمنطق الصوري يشكلان علاقة كثلاً التي بين الرياضيات العالية والبساطة.

سأحاول هنا أن أرسم جوهر المشكلة بشكل شديد الإختصار. المنطق الأرسطي الخاص بالقياس المنطقي البسيط يبدأ من الإفتراض بأن "أ" تساوي "أ". هذه المسلمة تقبل كديهية للعديد من الفعاليات الإنسانية العملية والتعيميات البسيطة.

لكن في الواقع "أ" لا تساوي "أ". هذا سهل الإثبات لو أتنا لاحظنا هذين الحرفين من خلال عدسة. إنهم مختلفان عن بعضهما البعض. لكن هناك من يقر بأن حجم وشكل الحرفين ليس هو المسألة ماداما مجرد رمزان لكميات متساوية. على سبيل المثال رطل من السكر. الاعتراض هنا خارج القصد، في الواقع رطل من السكر لا يساوي رطلاً من السكر. مقياس أكثر دقة يكشف عن فرق.

مرة أخرى ربما يعترض أحدهم "ولكن رطل السكر يساوي نفسه". ولا هذه حقيقة أيضاً. فكل الأجسام تتغير بلا انقطاع في الحجم والوزن واللون... إلخ. ليست متساوية لنفسها أبداً. سيرد السفسطائي قائلاً "إن رطل السكر متساوٍ لنفسه في لحظة محددة من الزمن".

بعيداً عن القيمة العملية المشكوك فيها بشدة لهذه "البديهية" فإنها لا تستطيع الصمود أمام النقد النظري أيضاً. إذ كيف يمكن أن تتقبل حقيقة كلمة "لحظة"؟ إذا كانت هي فاصلة متأخرة الصغر من الزمن. إذن فرطل السكر سيتعرض خلال سير اللحظة إلى تغيرات حتمية. أم أن "اللحظة" هي فقط تجريد رياضي خالص، أي صفر من الزمن؟ ولكن كل شيء يوجد في الزمن. والوجود ذاته هو عملية غير مقطعة من التحول. فالزمن وبالتالي عنصر أساسى للوجود. ولهذا فالبديهية "أ" تساوي "أ" تشير إلى أن الشيء يساوي نفسه إذا لم يتغير، وهذا في حالة عدم وجوده.

للولهله الأولى قد يبدو أن تلك الأشياء الدقيقة عديمة الفائدة. في الواقع هي ذات أهمية بالغة. البديهية "أ" تساوي "أ" تبدو من جهة نقطة إنطلاق لكل معارفنا. ومن جهة أخرى نقطة إنطلاق لكل الأخطاء في معارفنا. لكي نحقق استفادة من البديهية "أ" تساوي "أ" بدون الوقوع في الخطأ سيكون هذا ممكناً فقط داخل حدود معينة. عندما تكون التغيرات الكمية في "أ" من الممكن إهمالها بالنسبة للمهمة المؤداة عندئذ يكون من الممكن التسليم إفتراضياً بأن "أ" تساوي "أ"، هذه على سبيل المثال هي الطريقة التي يأخذ بها كل من البائع والمشتري رطل من السكر بعين الاعتبار. نحن ندرس حرارة الشمس بشكل مماثل، وحتى نتوصل إلى دراسة القوة الشرائية للدولار بنفس الطريقة. لكن التغيرات الكمية لما بعد حدود معينة تتحول إلى تغيرات كيفية (نوعية). فرطل من السكر معرض لفعل الكيروسين ينتهي وجوده كرطل من السكر (يتوقف عن كونه رطل من السكر). ودولار في قبضة رئيس يتوقف عن كونه دولاراً.

إن تحديد النقطة الحرجة التي يتغير عندها الكل إلى كيف في اللحظة الصحية هي واحدة من أهم وأصعب المهام في كل حقول المعرفة بما فيها علم الاجتماع.

كل عامل يعرف أنه من المستحيل صناعة شبيئين متماثلين ومتباينين تماماً. في عملية تقصيل النحاس كمحاميل مخروطية، يسمح بإنحراف معين للمخاريط والذي مع ذلك لا يجب أن يتعدى حدوداً معينة (هذا يسمى السماحية). وعن طريق ملاحظة نماذج السماحية، تعدد القوالب متساوية ("أ" تساوي "أ")، وعندما تزداد السماحية يتحول الكل إلى كيف، بكلمات أخرى تصبح المحاميل المخروطية رديئة وعديمة القيمة.

تقديرنا العلمي هو فقط جزء من ممارستنا العامة بما فيها التقنيات. بالنسبة للمفاهيم هناك (التحمل) الذي لم يؤسس تبعاً للمنطق الصوري للبداهية ("أ" تساوي "أ")، ولكن عن طريق المنطق الدياليكتيكي المنبثق من بديهية أن كل شيء يتغير. "المنطق المشترك" يوصف بحقيقة أنه بتناقية يتعدى "السماحية" الدياليكتيكية.

يتعامل الفكر الدارج مع مفاهيم مثل الرأسمالية، الأخلاق، الحرية، دولة العمال، إلخ...، على أنها تعميمات ثابتة، مسلمين بأن الرأسمالية تساوي الرأسمالية، الأخلاق تساوي الأخلاق، إلخ. إن التفكير الدياليكتيكي يحل كل الأشياء والظواهر في تغيرها المستمر، بينما يحدد في الظروف المادية لتلك التغيرات ذلك الحد الحرج حيث "أ" تتوقف عن كونها "أ". ولا تكون دولة العمال هي دولة العمال.

الخل الأصلي في الفكر الدارج يقع في حقيقة أنه يتمنى أن يقع نفسه بسمات ساكنة لواقع يتكون من حركة أبدية. التفكير الجدي يعطي المفاهيم، عن طريق تقريرات وتصحيحات وأمثلة ملموسة مرونة وثراء للمحتوى. وقد أقول أيضاً نصارة والتي إلى حد ما تجعلها (المفاهيم) أقرب لظواهر الحياة. ليست الرأسمالية بالطبع، ولكن رأسمالية معطاة (محددة) في مرحلة معطاة (محددة) من التطور. ليست دولة العمال بالطبع، ولكن دولة عمال معينة في بلد مختلف في محيط إمبريالي، إلخ.

يرتبط التفكير الجدي بالتفكير الدارج بنفس الطريقة التي ترتبط بها الصورة المتحركة بالصورة الفوتوغرافية الساكنة. الصورة المتحركة لا تبطل الصور الفوتوغرافية ولكن تكون منها متواالية تبعاً لقوانين الحركة. لا يذكر الدياليكتيك القياسي المنطقي، ولكن يعلمنا أن نجمع القياسات المنطقية بطريقة تقرب فهمنا من الواقع الأبدى التغير. وقد أنس هيجل في منطقه متاليه من القوانين: تغير الكل إلى كيف، التطور من خلال التناقض، نزاع المحتوى والشكل، اعتراض الإستمرارية، تغير الإمكانيه إلى حتمية، إلخ. والتي هي مهمة بالنسبة للفكر النظري كما المنطق البسيط بالنسبة للمهام الأكثر بساطة.

كتب هيجل قبل داروين وقبل ماركس بفضل الدفع القوي الذي أعطته الثورة الفرنسية للفكر. لقد توقع هيجل الحركة العامة للعلم. ولكن لأنه كان مجرد توقع، رغم عبقريته، فقد كان هيجل شخصية مثالية. تعامل هيجل مع الظلال الأيديولوجية مثل الواقع المطلق (الأقصى). لقد برهن ماركس على أن حركة هذه الظلال الأيديولوجية لم تعكس شيئاً سوى حركة الأجسام المادية.

نحن ندعو ديناليكتينا مادي طالما أن جذوره ليست في السماء ولا في عمق "إرادتنا الحرة"، ولكن في الواقع الشيئي، في الطبيعة. وينشأ الوعي من اللاوعي، علم النفس من علم وظائف الأعضاء، العالم العضوي من العالم

غير العضوي، النظام الشمسي من السديم. على كل درجات هذا السلم من التطور ، تحولت التغيرات الكمية إلى كيفية. وفكرنا بما فيه الفكر الدياليكتيكي هو فقط واحد من أشكال التعبير عن المادة المتغيرة. هناك مكان داخل هذا النظام لكنه ليس الشيطان والروح الخالدة والنماذج الأبدية للقوانين والأخلاق. لقد نشأ ديناليكتيك التفكير، من ديناليكتيك الطبيعة وهو يكتسب بناء على ذلك شخصية مادية تماما.

لقد كانت الداروينية، التي فسرت نشوء الأنواع خلال تحولات كمية مروراً بكيفية كانت، أكبر إنتصار للدياليكتيك في حقل المادة العضوية. إنتصار آخر كان إكتشاف جدول الاوزان الذرية للعناصر الكيميائية وأيضا تحول العنصر إلى آخر.

بهذه التحولات (الأنواع، العناصر، الخ). ترتبط بشدة قضية التصنيف، بنفس الأهمية في العلم الطبيعي كما في الإجتماعي. فنظام - لينو- (القرن 18)، الذي يستخدم نقطة انطلاقه ثبات الأنواع، كان مقصوراً على توصيف وتصنيف النباتات تبعاً لأوصافها الخارجية. إن فترة طفولة علم النبات (فترة نشوئه) تشبه فترة طفولة المنطق، بما أن أساليب تفكيرنا تتتطور كأي شيء حي. فقط الرفض الحاسم لفكرة الأنواع الثابتة، فقط دراسة التاريخ الخاص بنشوء وتطور النباتات وتركيبها البنوي، أعداً الأسس لتصنيف علمي حقيقي.

اكتشف ماركس الذي كان على خلاف داروين ديناليكتيكياً واعياً أسس التصنيف العلمي للمجتمعات الإنسانية في تطور قواها الإنتاجية وبنية علاقات الملكية التي تؤلف التركيب البنوي للمجتمع.

أحلت الماركسية محل التصنيف الوصفي الدارج للمجتمعات والدول، والذي مازال حتى الان مزدهراً في الجامعات، تصنيف ديناليكتيكي مادي. فقط من خلال طريقة ماركس من الممكن أن نحدد بدقة كلاً من مفهوم دولة العمال ولحظة سقوطها.

لا يحتوي هذا كما نرى على اي شيء "ميافيزيقي" او "لاهوتي" كالذى يقر به الجهل المغزور. إذ يعبر المنطق الدياليكتيكي عن قوانين الحركة في فكر علمي معاصر. وإن الكفاح ضد الدياليكتيك المادي يعبر على العكس عن ماض بعيد، عن البرجوازية المحافظة الضيقة الأفق، عن التصور الخاص لروتينيي الجامعة و... وشرارة من الأمل للحياة الآخرة.